العمارة والعمران في المملكة العربية السعودية

يشمل مفهوم لفظ «البيت» عند العرب أنماط مساكن مختلفة، إذ قسم هشام الكلبي ما شاع لدى العرب من بيوت إلى عدة أنماط هي: قبة من أدم (أي من جلد)، ومظلة من شعر، وخباء من صوف، وبجاد من وبر، وخيمة من شجر، وقنة من حجر، وسوط من شعر، وهو أصغرها. وميز بعض اللغويين كالزبيدي بين الخباء وهو بيت من الصوف أو الوبر أو الشعر يكون على عمودين أو ثلاثة، وبين البيت الذي يكون على عدد أكبر من الأعمدة قد تصل إلى تسعة أعمدة.

وسعة الخيمة وحجمها وشكلها يدل على منزلة ومكانة صاحبها. وقد قضت العادات والتقاليد العربية أن يكون هناك قاطع يقسمها إلى قسمين أحدهما للنساء ولا يدخله رجل غريب، والقسم الآخر للرجال والضيوف، ويكون أحياناً نادياً يجتمع فيه الرجال للحديث والسمر. وأما ما يعرف بمضرب القبيلة فهو خيمة كبيرة تكون مقراً رسمياً -إن جاز التعبير- لسيد القبيلة، إليها يفد الضيف والمحتاج. و تضرب لاستقبال الأشراف والسادة قبب من الأدم، وقد وصفت المعاجم اللغوية القبة بأنها بيت صغير مستدير من بيوت العرب (الزبيدي ١٩٦٨: قبب).

وقد أوردت المصادر اللغوية والتاريخية أن العرب تتخذ الأخبية وهي من الشعر أو الصوف لأنفسها، وتخصص المضارب التي ترتبط بالأوتاد لملوكها، وأُشير إلى الفسطاط على أنه من بيوت الشعر، وذكر أن الفسطاط العظيم هو فسطاط الملك، وأن الفسطاط عموماً ضرب من الأبنية في السفر دون السرادق، وبه سُميت مدينة الفسطاط.

ومن ناحية أخرى فإن هناك أنماطاً من العمران المستقر قد عرفتها شبه الجزيرة

العربية منذ مئات الألوف من السنين، وعلى سبيل المثال عثر منذ بضع عشرة سنة على أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم وذلك في منطقة مطار الملك خالد الدولي شمال شرقي الرياض. ويقدر عمر هذه الأدوات بما بين ٢٥٠ ألف سنة ومائة ألف سنة (ق.م.)، وهي فؤوس حجرية ونصال. والمنطقة التي عثر فيها على هذه الأدوات كانت مستوطنة قديمة قامت على ضفاف وادي المخر شمال شرقي الرياض (أطلال ١٤٠٢، ع٦: ٢٧-٣٢).

أثبتت الحفريات الآثارية في عدد من المواقع في شبه الجزيرة العربية أن المجتمعات البشرية القديمة التي استوطنتها، وهي من أرومة عربية، كانت لها عمارة خاصة بها، بدليل وجود آثار أبنية ومخلفات قديمة في القرى والمدن التي اشتملت على المساكن والمنازل والمدافن، إضافة إلى القلاع والأسوار والأطم وقنوات الري، وغير ذلك من أنواع البناء والعمران.

وقد ظل أبناء وأحفاد تلك المجتمعات يستوطنون مواقع أسلافهم الأُوَل جيلاً بعد جيل منذ أقدم الأزمنة حتى اليوم، ويعمرون الأرض ويبنون القرى والمدن، ثم يطورون الأبنية في مراحل متعددة حسب احتياجاتهم وحسب تنامي معارفهم في مضمار البناء. غير أن قسماً منهم ممن امتهنوا الرعي وآثروا البداوة وقطنوا الصحاري، اتخذوا مساكن لهم من الأخبية والخيام.

ومن يتتبع مساكن العرب منذ أقدم العصور يجد أنها متباينة؛ منها المتنقلة كالخيام، ومنها المبنية بالمدر (الطين) والحجر. والمساكن المتنقلة هي مساكن الرعاة البدو الرحل، أما المساكن الثابتة فهي مساكن أهل الحضر على ضفاف الأودية أو على السواحل أو في الواحات.

مواقع الاستيطان العمراني

بدأ الإنسان القديم الاستيطان في مواقع من جزيرة العرب ذات خصائص عمرانية واقتصادية وجغرافية، وخاصة في المناطق الساحلية على الخليج العربي والبحر الأحمر، وفي المناطق الداخلية والشمالية. وسوف نتحدث بإيجاز عن مواقع الاستيطان العمراني.

المناطق الساحلية. ظهرت بعض مناطق الاستيطان على ساحل الخليج العربي في إقليم الأحساء الذي كان يعرف بإقليم (ديلمون) الشهير باللؤلؤ الذي كان يستخرج من الأصداف، ويرسل إلى مدينة (أور) في العراق. وإضافة إلى

مهنة الغوص على اللؤلؤ فقد مارس سكان الأحساء التجارة وصيد الأسماك منذ ٦٠٠٠ سنة، وكانوا يستخدمون جذوع الأشجار المجوفة كقوارب لصيد الأسماك، وتعد القطيف وتاروت من المراكز العمرانية البحرية القديمة. وقد ورد ذكر (تاروت) وفيها (دارين) في جغرافية بطليموس. وفي سنة ١٩٦٨م قامت بعثة دنماركية بعمليات مسح آثارية للمنطقة الشرقية، واكتشفت أكثر من عشرين موقعاً تعود إلى عصور مختلفة، في كل من ثاج والعقير اللتين تعودان إلى العصر الإغريقي والعربي القديم.

أما المناطق الساحلية للبحر الأحمر فلم تشهد قيام مستوطنات كثيرة بسبب وجودها في منطقة جافة وحارة، ولا توجد سوى بقايا قرى يعتقد أنها مستعمرات يونانية أقامها اليونانيون لحماية سفنهم من القراصنة، ومن أمثلة ذلك (قصر كريم) قرب مصب وادي القرى جنوب مدينة الوجه.

محطات الطرق التجارية. اشتهرت جزيرة العرب بدورها التجاري بين الشام ومصر واليمن، وذلك لأن البحر الأحمر لم يكن طريقاً ملاحياً سهلاً بسبب كثرة الشعاب المرجانية وصعوبة الملاحة. ومن أهم الطرق التجارية في جزيرة العرب، الطريق الغربي الذي كان يمر بمأرب ونجران ومكة ثم يثرب فالعلا فمدائن صالح ومنها إلى تيماء ثم ينتهي عند البتراء. وقد ورد ذكر هذا الطريق في سفر الملوك-الإصحاح العاشر من التوارة عند الحديث عن زيارة بلقيس ملكة سبأ لسليمان (الجاسر ١٣٩٠ : ٣٧٣).

ومن الطرق الأخرى، طريق الجرعاء (هجر)، بالمنطقة الشرقية الذي يمر بالهفوف واليمامة ثم وادي الدواسر حتى نجران ومنها إلى مأرب. وهناك طرق فرعية. وازدهرت المدن التي وقعت على هذه الطرق التجارية لأن القوافل التجارية كانت تحتاج إلى منازل تستريح فيها وتتزود منها بما يلزم من ماء وغذاء، وكانت هذه المحطات على مسافات مناسبة وكانت تمتاز بتوافر الغذاء والأمن. وبمرور الوقت، أصبحت هذه المحطات والمنازل مُدناً مهمة، كما هي الحال في مكة ويثرب والطائف وخيبر وحائل وقرية الفاو. ودلت الحفريات التي أُجريت على أن لقرية الفاو شأناً تجارياً مهماً منذ ألفي سنة قبل الميلاد. وازدهرت مدن أخرى في المنطقة الشرقية لوفرة المياه الجوفية والعيون فيها مثل الجرعاء، والقطيف والهفوف. أما المدن التي قامت عند الأودية، فمن أشهرها يثرب (المدينة

المنورة)، ومن أشهر أوديتها وادي بطحان ووادي قناة.

مناطق الحدود والحصون. نشأت بعض المدن على الحدود، وكذلك الحصون للقيام بوظائف دفاعية مثل الحيرة على تخوم بلاد الفرس وفيها المناذرة، كما أقام الغساسنة إمارة لهم على تخوم الروم، ومن المدن التي دانت بالولاء للروم دومة الجندل. وقد أقام اليونانيون مدينة (لويكة كوم L. Kome) على البحر الأحمر لحماية سفنهم.

محددات الأنماط المعمارية

لا تختلف العمارة في المملكة العربية السعودية في كثير من جوانبها عن العمارة في دول جزيرة العرب لأن هذه المجتمعات التي خلفت العمارة قديماً هنا وهناك ذات أرومة عربية واحدة كما أسلفنا، لكننا بصدد حديث مفصل عن العمارة في المملكة في سائر مناطقها الرئيسية. ونود أن نقدم بحديث عن البيئة الطبيعية، والبيئة البشرية وأثر ذلك في العمران التقليدي، ثم نحاول استقراء بعض الملامح العامة ومميزات التراث العمراني بوجه عام.

البيئة الطبيعية. تشغل المملكة العربية السعودية حوالي ٨٠٪ من شبه الجزيرة العربية، وتضم مناطق متباينة في مناخها وفي تكويناتها الجيولوجية والتضاريسية، وكل هذه الظروف ذات علاقة بالعمارة والبناء.

ومن أهم ما يميز التكوينات الجيولوجية في المملكة، وجود الدرع العربي الذي يغطي مساحة تصل إلى ٢٧٪ من مساحة المملكة، وهو صخور نارية صلبة هي الأساس الذي ترتكز عليه الطبقات الرسوبية. وتقطع الأحجار الجرانيتية المستخدمة في البناء من هذا الدرع. أما مناطق الصخور الرسوبية التي تمتد شرقي الدرع العربي، فتحتوي على مكامن المياه الجوفية والأحجار الجيرية والرمال، وكل ذلك يدخل في أعمال البناء والعمران. ويمكن أن نتحدث عن عنصرين مؤثرين من عناصر البيئة الطبيعية هما التضاريس والمناخ.

وتتصف تضاريس المملكة بالتنوع إذ هي مرتفعات جبلية وهضاب وسهول ساحلية وسهول فيضية، وتعد جبال الحجاز أهم تضاريس شبه الجزيرة العربية، حيث تمتد لمسافة ١٨٠٠كم من أقصى شمالي المملكة حتى الحدود اليمنية، وأعلاها يعرف بمرتفعات السروات (جمع سراة) وتعني الأرض المرتفعة، وهي سلاسل جبلية متوازية

لهـا حواف انكسـارية، تغـلب عليـها التكوينات الصخرية النارية والمتحولة.

ويختلـف ارتفاع جبال الحجاز من منـطقة إلى أخـرى، لكن الملاحـظ أن الارتفاع يزيد كلما اتجهنا جنوباً، فبينما لا يتجاوز ارتفاعها شمالي جدة أكثر من ١٠٠٠م، يزيد هذا الارتـفاع إلى أكثر من ٣٠٠٠م فوق سطح البحر قرب أبها. وتنحدر هذه الجـبال جهة الغرب بشدة حتى يـكاد يكون الانحدار عـمودياً مما يساعد عـلى تكوين انحـدارات عميقة تعرف بالعقبات، ويطلق على منحدرات السروات المتجهة إلى الساحل مصطـلح محلي هو الأَصدار، الـتي تمثل مرحلة الانتقـال من المرتفـعات إلى السهـول، ويتراوح عـرضها ما بين ٣٠ و ٧٠كم وهي بذلك تفوق سهول تهامة الساحلية اتساعاً، وتتصف منطقة الأَصدار بتنوع مظاهر السطح فيها فمنها هضاب صغيرة متقطعة ومنها أودية انكسارية.

ويمتاز العـمران في المناطق الجـبلية بانتشـار القرى كلما سمحـت الظروف وتوفرت المصـاطب الزراعية، ومبانـيها قلاع منتشرة في سفوح الجبال، وتُختار أكبر القرى غالباً مقراً للسوق الأسبوعية وللمسجد الجامع، وغـالباً ما تمتاز هذه القرى بسهولة الوصول إليها.

أما في منـطقة الأصدار فإن مواقع القرى تـكون في بطون الأوديـة أو في المناطق ذات الإمكانات الرعوية الجيدة، وتمتاز مبانيها بأنها أكبر مساحة من مباني المناطق الجبلية، فقد تصل مساحة المبنى إلى ٣٠٠م٢، أما في المناطق الجبلية فقد لا تتعدى مساحة المـبنى ١٠٠م٢ وذلك حفاظاً على الأراضي الزراعـية، ويلجأ السكان بتلك المناطق إلى زيادة عدد أدوار المبنى إلى ثلاثة أو أربعة أدوار.

وأما هضبة نجد فإنها تشغل مساحة تصـل إلى أكثر مـن ٢٥٪ من مسـاحة المملكة العـربية السعودية، وتقع هضبة نجد وسط المـملكة، تحدها الحـرار غرباً وصحراء الدهناء شرقاً والربع الخالي جنوباً وصحراء النفود شمالاً، وتمتاز هضبة نجد بأنها هضبة متوسطة الارتفـاع إذ يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٥٠٠م عند صحراء الدهناء، و٩٠٠م في الأجزاء الغربية.

وتضم هضبة نجد كثيراً من المدن المهمة مثل مدينة الرياض عاصمة المملكة ومدينة بريـدة قاعدة القـصيم وعنـيزة وشقراء والمجمعة وحائل والخرج وليلى وغيرها، كما تضم عشرات المدن الصغيرة والقرى.

ولا تخـلو هضـبة نجد مـن وجود المرتفعات العالية الشهيرة مثل جبال شمر، وجبال طويق.

وهناك مجموعة من الهضاب في شمالي وشرقي المملكة مثل هضبة الحماد الحصوية وهضبة الصمان.

أما السهول الساحلية فهي تنتشر على ساحلي البحر الأحمر والخليج العربي، ويتفاوت اتساع هذه السهول ما بين منطقة وأخرى تبعاً لاقتراب أو ابتعاد المرتفعات من البحار، كما يختلف ارتفاعها عن سطح البحر من منطقة إلى أخرى. ويتفاوت اتساع سهل تهامة ما بين بضعة كيلومترات إلى أكثر من ٤٠ كم في منطقة جازان. ويتصف الساحل الشرقي على الخليج العربي باتساعه اتساعاً قد يصل إلى أكثر من ٥٠ كم. ويتصف بانخفاض سطحه وكثرة مستنقعات المياه المالحة والسباخ التي تنشأ غالباً عن ظاهرة المد والجزر.

ومن الظاهرات العامة التي تميز سطح المملكة العربية السعودية انتشار بحار الرمال التي تغطي مساحات واسعة من سطح المملكة مثل الربع الخالي، وصحراء النفود، والدهناء.

وتنتشر مجموعة من الأودية والشعاب الجافة في جميع أجزاء المملكة، وعلى الرغم من جفاف هذه الأودية معظم شهور السنة إلا أن أهم مدن المملكة تقع على هذه الأودية نظراً لأن المناطق القريبة من الأودية تكون إمكانات المياه الجوفية بها طيبة مما يتيح حفر الآبار وتوفير المياه. كما أن الطين الذي تبنى منه البيوت كان يؤخذ من طمي السهول الفيضية التي تمتد على جوانب هذه الأودية.

ومن أشهر أودية المملكة وادي الرمة الذي يبدأ من المرتفعات الغربية، ويمتد مئات الكيلومترات ويخترق منطقة القصيم حيث يعد محوراً عمرانياً مهماً انتشرت حوله المدن والقرى.

ومن الأودية المهمة الأخرى وادي حنيفة الذي تقع عليه معظم القرى التابعة للرياض (أكثر من ٣٠ قرية). أما وادي الدواسر فتنبع روافده الرئيسية من جبال الحجاز مثل وادي بيشة وتربة ورنية وتثليث.

وهناك أودية أخرى مثل وادي السرحان ووادي سدير والليث وفاطمة وغيرها كثير. والأودية عموماً مناطق يقترب منها العمران لتوافر الماء من ناحية ومادة الطين الذي تبنى منه البيوت التقليدية، وغالباً ما تختار القرى التقليدية أطراف الأودية لوجود التربة الصالحة للزراعة واحتمالات توافر المياه.

وننتقل الآن للحديث عن المناخ وأثره على العمارة وأنماطها. تقع المملكة في عروض ألحقتها بالمنطقة الصحراوية الحارة التي تمتاز بارتفاع درجة الحرارة والجفاف معظم السنة، وبسبب اتساع مساحة

المملكة فإن الظروف المناخية تختلف من منطقة إلى أخرى من حيث عناصر المناخ المختلفة من حرارة ورياح ومطر. وعموماً فإن معظم أجزاء المملكة تتصف بارتفاع درجات الحرارة معظم أوقات السنة عدا المناطق الجبلية كما هي الحال في جبال الحجاز، ويزيد المعدل الحراري السنوي على ٢٠ْم وأكثر شهور السنة حرارة هي يونيو ويوليو وأغسطس إذ قد تصل درجة الحرارة في بعض المناطق إلى ٥٠ْم، وتزيد الدرجة على ٤٠ْم في معظم أجزاء المملكة خلال شهور الصيف. أما أقل شهور السنة حرارة فهي شهور ديسمبر ويناير وفبراير إذ تنخفض درجات الحرارة عن الصفر المئوي أحياناً في بعض المناطق شمالي المملكة وعلى المرتفعات العالية.

وقد واجهت العمارة قضية ارتفاع الحرارة وانخفاضها بحلول عملية تمثلت في الحارات الضيقة والملتوية التي توفر الظلال، كما أن النوافذ في الجدار الخارجي للبيت تكون صغيرة ومرتفعة لتكون بعيدة عن الحرارة المنعكسة من الأرض، وبعيدة أيضاً عن أتربة الرياح والعواصف الرملية التي تتعرض لها مناطق كثيرة من المملكة في فصل الربيع.

أما الأمطار فإن كمياتها السنوية تختلف من منطقة إلى أخرى فتقل في بعض المناطق عن ٢٠ملم وتزيد في أخرى على ٤٥٠ملم كما هي الحال في جنوبي جبال الحجاز فيما يعرف بالسروات، وتزداد كميات الأمطار كلما اتجهنا صوب الجنوب الغربي، كما تختلف من سنة إلى أخرى.

وفي بعض مناطق المملكة يستفاد من مياه الأمطار للشرب حيث تجمع هذه المياه من أسطح المنازل النظيفة بخراطيم ثم تخزن في خزانات مياه كما هي الحال في منطقة جبل فيفا.

وأثر المطر في الغطاء النباتي الطبيعي مهم حتى إن النبات الطبيعي هو في مجمله انعكاس صادق لكمية المطر وظروف التربة، ومن هنا نجد أن المناطق ذات الكميات الوفيرة من المطر تنمو فيها الأشجار التي يعتمد عليها في تسقيف المنازل وعمل النوافذ والأبواب، ومن هذه الأشجار العرعر بمنطقة عسير والنخيل والأثل وغيرها في معظم أجزاء المملكة.

البيئة البشرية. يقصد بالبيئة البشرية كل ما يتعلق بالإنسان من معتقدات وقيم دينية، وعوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية، وسوف يتضح لنا بالتفصيل أثر هذه العوامل في فصول الكتاب، لكننا نوجز بعضها لنوضح أن البيئة البشرية لها أثرها الفعال في العمران التقليدي، وعلى سبيل المثال

يلاحظ أن للمسجد أثراً مهماً في حياة المسلم ولذا نجد أنه يحتل وسط القرية أو المدينة ويترك حوله فراغات تكون فيها التقاءات الأعياد وحفلات الزواج، كما أن القعيدة الإسلامية لا تقتصر على العبادة فحسب بل تمتد لتنظيم جميع شؤون الحياة، فالإسلام يراعى حقوق الجار، وفي حديث للنبي ﷺ أن جبريل ظل يوصيه بالجار حتى ظنَّ النبي ﷺ أنه سيورثه، لذا نجد أن المباني كانت تحافظ على الخصوصية وتصونها بتهيئة الفراغ الداخلي في البيت وصحن الدار وبتجنب تقابل أبواب المنازل. ولصحن الدار، وهو مساحة مفتوحة إلى السماء، أهمية من عدة وجوه؛ فهو من الناحية الاجتماعية وهو مكان تلتقي فيه العائلة، وملعب ينطلق فيه الأطفال ويحجب النساء عن عيون الغرباء ويساعد على تخفيف الضوضاء. وتطل النوافذ الواسعة على صحن الدار للحصول على الضوء والتهوية، أما الكوات (جمع كوة) الصغيرة فكانت حافاتها السفلى مرتفعة عن أرضية الطابق بأكثر من مترين حتى لا يمكن لشخص متوسط الطول أن يطل على الجيران منها وذلك حرصاً على حرمة البيوت.

وفي بعض طرق القرى التقليدية كانت هناك غرف معلقة فوق الطريق تغطي جزءاً منه، وتسمى القبه وهي تسهم في الإشراف على الطريق وحمايته، كما أنها توفر الظلال وتعطي جواً من الخصوصية لأنها أحياناً كانت تربط بين بيتين على جانبي الطريق وصاحبهما واحد، ويتخذ المكان الذي يقع تحت القبة مجلساً أحياناً بسبب ما يوفره من ظلال.

ومن الأمور الجيدة أنه في الماضي قبل ظهور الدوائر الحكومية المسؤولة عن صكوك الملكية ووثائقها، كان سكان القرى يحترمون حدود الملكية المتعارف عليها على الرغم من عدم توافر الوثائق أو الصكوك التي يستند إليها في تحديد الملكية.

وتؤثر المهن والحياة الاقتصادية في العمران والعمارة التقليدية؛ ففي المناطق الزراعية حيث يعتمد على الحيوان في أعمال الزراعة نجد تقارب الإنسان مع الحيوان حتى في المسكن، فالأرض هي ميدان العمل ومجاله والحيوان هو وسيلة وشريك للإنسان في استغلال الأرض. وفي القرى الزراعية نجد الأزقة والمدقات التي تربط بين البيت أو السكن بمقر العمل وهو الحقل أو المزرعة. وفي المناطق الجبلية حيث تقل الأراضي المستوية المستخدمة للزراعة نجد مساحة البيوت صغيرة فالامتداد الأفقي غير مرغوب فيه، لذا نجد أن الامتداد الرأسي المتمثل في تعدد

الأدوار هو الحل الـذي يجب أن يلـجأ إليه صاحب البيت.

وفي المناطق التي تعتمد على الأسواق الأسبوعية نجد أن القرى الواقعة بها نمت تبعاً لأهمية هذه الأسواق، كما أن بعض القرى والمدن اكتسب اسمه من يوم انعقاد هذه الأسواق مثل: خميس مشيط، سبت العلاية، ربوع قريش، وأحد رفيدة.

وبسبب الارتباطـات القبلية نجد أن البيوت تعبر عن ذلك بصورة تبدو وكأن بعض القرى كتلة طينية واحدة، ولا شك أن الطرق الضيقة والملتوية التي تنتشر في تلك القرى لها دور دفاعي وأمني، إلى جانب ما توفره من ظلال، ذلك أنها إذا حل الظلام يستحيل على غريب أو أجنبي أن يرتادها بسبـب ما يسودها من عتمة تربك الغرباء.

ملامح التراث العمراني

تعكس عمارة كل شعب أو أمة ضرباً من المفاهيم الاجتماعية والدينية والروحية المتمثلة في نمط حياتهم ومعمارهم، كما تعكس أيضاً مدى اتصال هذا الشعب أو هذه الأمة بحضارات أخرى، وتأثرها بها.
وقد دلت الاكتشـافات الآثارية في شبه الجزيرة العـربية على أن منـطقة الخليج العربي كـانت على اتصال بـالحضارات الكبرى في الهند وبلاد الفرس وحوض النيل وبلاد ما بين النهرين فيما بين ٤٠٠٠ و٣٠٠٠ ق.م. واستمـر هذا الاتصال حتى اليوم، كما كان لشمال جزيرة العرب اتصال بحضارات الإغريق والرومان منذ أقدم الـعصـور. وكانت نـتيجـة تلـك الاتصالات تأثر العمارة في جزيرة العرب بشكل واضح بعمارة تـلك الحضارات، خاصة من ناحية وجود الملاقف الهوائية والحوائط الـسميكة الـصماء وكثيـر من التشكيلات الزخرفية في الأبنية.

ومن المعروف أن المدن والقرى القديمة في جزيـرة العرب مسـتوطنات بـشرية مستقرة، بيـوتها ثابتة. ولئن كان هنـاك من يرى أن كلمـة المدينة من «Medinta كلمة آرامية تعـني الحمى لقيام أسوارها بدور الحماية» (الفقير ١٤٠٠: ٨٩)، فإن المعاجم اللغوية العربية ترى أن اشتقاقها من «مَدَنَ بالمكان: أقام واستقر به». وقد عرفت القرية بأنها كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً أي مكاناً للاستقرار.
وكان مصطلـح القرية قديماً يطلق عـلى المدن وغيرها. وقد عرفت مـكة بالقرية كما عرفت أيضاً بأم القرى. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ولتنذر أمَّ القرى ومن حولها﴾، وقيل سميت كذلك لأنها أعظم القرى شأناً، «وقيـل لكونها قبلة يؤمها

المسلمون جميعاً في سائر القرى أي المدن». (الأزرقي ١٩٦٥: ١٧). وتشير بعض المعاجم اللغوية كالتاج إلى «أن العرب تسمي القرى مصانع واحدتها مصنعة، وتطلق المصانع كذلك على المباني من القصور والحصون». «وكان العرب أحياناً، يطلقون على سكان القرى الزراعية مصطلح «أخضر النواجذ» إشارة إلى أنهم ممن يأكلون الخضراوات من بصل وبقول، لأن الأعراب والبدو لا يتناولون هذه الخضر» (علي ١٩٦٨، ج٥: ١٠).

وكانت بعض المدن ذات أسوار للدفاع عنها، وكانت هذه الأسوار تختلف من حيث الطول والارتفاع والسُمْك؛ ففي المدن المهمة، كان سُمك السور أحياناً يزيد على متر حيث يبنى من جدارين متوازيين من الطين واللِّبْن بينهما رمل ثم يطلس سطح السور بالطين. وكانت أسوار المدن التي تبنى فوق الجبال والهضاب أقل ارتفاعاً من أسوار تلك المدن التي تبنى في المناطق السهلية وذلك لأن المناطق المرتفعة حصينة بارتفاعها.

ولا تتوافر في المصادر المختلفة معلومات عن تخطيط المدن القديمة وأنماط مبانيها وأسواقها وساحاتها، ويبدو أن الإخباريين القدامى لم يحفلوا كثيراً بالنواحي العمرانية من حيث التصميم والتخطيط، كما أن هناك سبباً آخر لعدم توافر المعلومات هو قلة الحفريات والتنقيبات في جزيرة العرب واقتصارها على مناطق محدودة.

وتجدر الإشارة إلى أن العمارة القديمة في جزيرة العرب لم تكن كلها مبنية من الطين واللِّبْن، فيبدو من بعض الآثار التي عُثر عليها في تيماء أن آجامها (جمع أجم) وهو البيت المربع، كانت مشيدة بالجندل أي الحجر والصخور، وكانت السقوف تصنع من جذوع النخل.

ويطلق أهل الحجاز مصطلح القصور على البيوت الحجرية، وكانت تؤدي دور الحصون في أوقات الخطر. والقصر عند العرب كل بناء من حجر. والمجصص أو بناء الجص بالمدينة هو البناء الضخم المبني بالجص والحجارة. وكان لكل قصر بئر يؤخذ منها الماء.

وقد شاع استخدام مصطلح الأطم وهو القصر المبني بالحجارة وذلك في يثرب (المدينة المنورة)، وكان الأوس والخزرج يجتمعون في آطامهم وقت الخطر، وقد ورد أن بلالاً الحبشي كان يؤذن على أطم المدينة، ويقصد بذلك البيت المربع المسطح. أما بالنسبة لارتفاعات البيوت فهناك إشارات في روايات أهل الأخبار يستنتج منها أن في

يثرب بيوتاً تكونت من طابقين كان أحدهما يستخدم أحياناً للماشية والدواب وهو الأرضي، وأحياناً كانوا يسكنون الطابقين. وقد جاء في تفسير الطبري أن دار أبي أيوب الأنصاري التي نزل بها النبي عليه السلام «كانت ذات طابقين، نزل الرسول أحدهما وسكن أبو أيوب الطابق الثاني» (علي ١٩٦٨، ج٥: ١٧).

ويذكر المؤرخون أن عمران مكة قبل أن تتولى قريش شؤونها، كان مضارب من الشعر. ولم تكد قريش تتولى أمر مكة حتى حلّت بيوت الطين والحجر محل مضارب الشعر. ويقال إن سعيد بن عمرو السهمي أول من بنى بيتاً بمكة وكانت عمارة البيوت تتحاشى الشكل المربع حتى لا تحاكي شكل الكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً هو حميد بن زهير، وقد استهولت قريش ذلك الأمر فقالت: ربع حميد بيتا إما حياة وإما موتاً. ولم يكن للبيوت أبواب فكانت مداخلها دون أبواب، ويروى أن هنداً بنت سهيل استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل لدارها بابين فأبى وقال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين، فقالت: والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغلقها عليهم من اللصوص، فأذن لها عمر فبوَّبتها» (السباعي ١٩٧٣، ج١: ٢٩).

وعلى وجه العموم يمكننا تقسيم العمارة القديمة في المملكة العربية السعودية إلى عمارة سكنية ضيقة كالمأوى أو المسكن، وأخرى غير سكنية واسعة كالحصون والقلاع والآطام والأسوار والأبراج لرد الأعداء واتقاء شرهم وخاصة في أوقات الصراعات والحروب قبل تأسيس المملكة واستتباب الأمن والاستقرار.

ويتباين نمط البناء والمعمار في مناطق المملكة في الحجم وبعض العناصر والتفاصيل الصغيرة وليس في الأساسات. فلكل منطقة مقومات هندسية وطرز بنائية خاصة بها، تتناسب وطبيعة المنطقة وتستوفي حاجتها. ويرجع السبب في هذا التباين إلى مؤثرات متعددة، مناخية وحضارية وسياسية واجتماعية، تتصل بحياة الناس ونظمهم الاجتماعية وظروفهم المعيشية، فضلاً عن أن معمار المناطق الجبلية لا بد أن يختلف عن معمار المناطق الساحلية أو السهلية ليس من ناحية النمط فقط بل من ناحية المواد الخام والأدوات المستخدمة في البناء.

وعلى الرغم من ذلك، اختصت المدينتان المقدستان بنقلة في المعمار والبناء فظلت مكة المكرمة والمدينة المنورة على مدى التاريخ الإسلامي نمطاً معمارياً متأثراً إلى حد كبير بجذوره العربية الإسلامية،

إضافة إلى ما أعقب ذلك من التأثير العمراني على يد الأتراك العثمانيين.

ويتأثر التصميم المعماري بنوع المنفعة والغرض المخصص للبناء، وهل هو سكن أو مسجد، أو سوق، فضلاً عن القدرة المادية التي يظهر أثرها في المواد المستعملة والزخرفة ومهارة الصناع والبنائين.

كما يتأثر المعمار بالمؤثرات الاجتماعية وطبيعة العلاقات في مجتمع محافظ يفصل بين الرجال والنساء، ونفهم في ضوء هذه الظروف الاجتماعية لم كان مجلس الرجال مكتفياً ذاتياً بكل ما يعين على إكرام الضيف، فثم الوجار والدلال والشاي والقهوة، ولا يحتاج مجلس الرجال أن يطلب المساعدة من مجلس الحريم، ثم يظهر أثر العامل الاجتماعي المحافظ في مداخل الدور أو التصميم الداخلي الذي يأتي على نحو لا يسمح بأن تكشف السطوح أو بطن الحوي أو حتى المداخل الخارجية التي تستخدمها النساء عادة أحداً من الغرباء. كما راعت الخصوصية أيضاً عدم وجود فتحات أو ارتفاع على الجيران. وعلى ذلك يستطيع الضيف دخول مجلس الرجال في غياب صاحب الدار، وإعداد القهوة والشاي لنفسه دون أن يجرح خصوصية البيت.

ويؤدي المناخ ذو الصيف الحار وخصوصاً في النهار دوراً في إيجاد منافذ للتهوية والإضاءة ونسمات الهواء، تكون إما في السطح أو في فناء الدار إذ لا بد من أن يتأقلم السطح أو الفناء مع العادات والتقاليد ليسمح لأهل الدار بالاستمتاع بنسمات الهواء المنعش خارج الغرف من دون التعرض للعيون الفضولية من الخارج.

ومن العوامل التي تؤثر على نمط المعمار والبناء أيضاً الأحوال السياسية والأمنية وتوجس الناس وإحساسهم بالخوف من غارات المغيرين أو من السلب والنهب، لذلك كان تصميم البيت يؤدي دور القلعة عند الضرورة، فهناك كوات للنظر إلى طارقي الأبواب والمارين في الطرق، وفتحات (طرم) للدفاع وصب الماء الحار على المهاجمين، وقد كان ذلك قبل تأسيس المملكة العربية السعودية على يدي جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود يرحمه الله.

كما يحدد نمط المعيشة في الدار أو البيت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة، إذ يتزوج الأبناء ويقيمون في الدار ويرزقون أبناء ولا بد أن تستوعبهم الدار، لذلك يبني رب الأسرة -من البداية- داراً ليست لنفسه فقط بل لأسرته الراهنة والمتوقعة في المستقبل.

من ناحية أخرى، فإن نمط الحياة قديماً يجعل لحيوانات الدار جزءاً منها يخصص

لمعيشتها حسب نوع هذه الحيوانات من إبل وبقر وضأن وماعز، إضافة إلى الدجاج والحمام.

وتتحكم في عمارة الدور، الوظائف المطلوب أداؤها، فهي ليست فقط للنوم والأكل بل هناك أمكنة لتخزين مواد الإعاشة والحبوب والذرة وعلف الحيوانات، وأدوات صاحب الدار مهما كانت مهنته، وهناك الجصه التي تبنى لحفظ التمر واستخراج الدبس منه.

أما تخطيط القرية فله وضع خاص، حيث تؤمِّن الطرق سهولة وصول الغريب إلى مسجد القرية الذي غالباً ما يكون في مساحة واسعة في وسطها يحيط بها السوق أيضاً، وبذلك يجد الغريب من يستضيفه ويحرص على إكرامه، كذلك تخطط مداخل القرية لأغراض متعددة منها إعانة الراعي على إيصال الأغنام والأبقار إلى بيوت أصحابها في دورة خاصة تتجنب إثارة الغبار الكثيف وتلويث الجو. كما تساعد الطرق الملتوية على قدر من الحماية أو المناورة إذا هوجمت القرية، ويجعل باب في سور القرية يقفل عند المساء وطول الليل ولا يفتح إلا عند الفجر للخروج للسواني، ثم يقفل مرة أخرى حتى طلوع الشمس ويستمر مفتوحاً طوال النهار.

موادّ البناء

نتطرق هنا للمواد الخام المختلفة التي تُستخدم في البناء، وفقاً لطبيعة كل منطقة، وهي مواد في مجملها لا تتجاوز الحجارة والطين والرمل واللبن والخشب والتبن والجص والرماد، تارة بأشكالها الأولى، وأخرى مضافة مع مواد أخرى لتعطي مادة وشكلاً له استخدام خاص في عملية البناء.

تستخدم في البناء التقليدي عادة مواد مختلفة مثل الحجارة والطين واللِّبْن والخشب والماء والرمل والتبن والجص والرماد، وغير ذلك من المواد الأخرى التي تستخدم في البناء بشكل جزئي أو استثنائي، كالخيوط والليف والحصر والألوان. وفيما يلي نبذة عن أهم هذه المواد وأنواعها ومصادرها التي تؤخذ منها، وكيفيّة إعدادها وتحضيرها وأغراض استعمالها.

الحجارة. وهي الحصى الذي يؤخذ غالباً من أماكن خاصة ومعروفة في الجبال والتلال الصخرية القريبة من المدينة أو القرية، وتُسمى مقالع، أو مقاطع، أو محاجر، أو مناجم الحصى، فتُقلع الحجارة من سطح الأرض أو من البحر، كما في جدة. ويتولى قطعها وتشكيلها بأحجام مختلفة مجموعات من الرجال

المهرة في إنجاز هذا العمل الشاق. وتتكون كل مجموعة من أربعة أشخاص، يعمل اثنان منهما للقطع باستخدام الفرزه، والحديده، والعتله، والفاروع، واثنان للفصل والتشكيل مستخدمين المقرعه. ثم تباع هذه الحجارة وتنقل على ظهور الجمال بالمناقل، وعلى ظهور الحمير بالأوقار. وهي تستعمل لطي الآبار (القلبان)، وبناء الزرانيق، وأعمدة البيوت والمساجد وسواريها، وتسقيف الغرف والبيارات، وردم وبناء الأساسات (الساسات) في مختلف الأبنية، قبل بدء البناء باللبن والطين. وتوجد أنواع عديدة من الحصى، يستخدم كل نوع منها لغرض خاص. ويمكن حصر هذه الأنواع من الحصى على النحو التالي:

حصى المواجبه، طول الحصاة أو الحجر ذراع، وعرضها شبر، وهي لطي أساسات المنازل.

حصى القرون، طولها أربعة أذرع وعرضها شبر، وهي لطَمّ أو تسقيف البيارات.

حصى الخرز، وشكلها أُسطواني، وتستخدم لبناء الأعمدة والسواري.

حصى القنايع، وهي مستطيلة تُركب فوق الخرز التي تتكون منها الأعمدة، أو السواري.

حصى المذيّل، وهذا النوع على شكل مثلث ويستعمل لطي الآبار القلبان وبناء أساسات المنازل.

حصى الكمرات، وتوضع فوق القنايع على شكل مثلث، وهي مستطيلة طولها ثلاثة أذرع وعرضها ذراع. ومعظم الحجارة الطويلة الرقيقة تسمى فروش.

حصى الرقف، وهي حجارة صغيرة تنتج عن تكسير الحجارة الكبيرة، وتستعمل في حشو الفراغات والفجوات في مداميك اللبن لزيادة ثباتها وقوتها وتسمى شقوصْ واحدها شقص.

ويذكر الوشمي أن أشهر المقالع في الرياض قديماً، كانت على سبيل المثال في ظهرة الشميسي، وظهرة البديعة، وظهرة السويدي، ثم البواقر في طريق الحجاز. وكان من أشهر قاطعي الحصى أو الحجر في ذلك الوقت فهد الطمرة، وسعد بن عيسى، وسعد بن داود، وابن محيسن، ومحمد بن سعد بن كنعان، ومحمد بن قعيد وغيرهم. (٤٦:١٤٠٦).

وكان في كل مدينة وقرية بعض المقالع، وعدد ممن مارسوا مهنة قلع أو قطع الحجارة، وهي مهنة شريفة سائدة في ذلك الوقت ولها أساتذة مهرة لهم احترامهم وتقديرهم بين الناس.

والحجارة المفضلة لجميع أغراض البناء هي الحجارة الجيرية. أما حجارة الصوان فهي لا تصلح للبناء لأنها صعبة التشكيل وملساء لا تتماسك مع الطين، ولا يثبت عليها عندما يجف. وهناك الحجارة الصغيرة التي تدعى الرقف، كما أسلفنا، وتسمى في المنطقة الغربية ومناطق أخرى المشاقيص ومفردها مشقاص، وهي ضرورية لملء الفجوات والثغرات الموجودة بين حجارة الأساس الكبيرة، أو سد الفتحات والثقوب في جدران الطين واللبن.

وفي تهامة زهران شكل حجر الديورايت والأردواز المعروف محلياً باسم القهب العمود الفقري لمادة البناء الأولى بمنطقة تهامة زهران، حيث توجد مقالع حجرية بالقرب من القرى المعروفة بالمنطقة، فهناك مقلع قرية ذي عين، ويمتاز بنوعية جيدة يعرف محلياً باسم القهب الداكن. وعلى الرغم من صلابة وشدة هذا النوع إلا أنه يفضل من قبل السكان المحليين في البناء. ومن المقالع الحجرية أيضاً هناك مقلع قرية الجوة الذي يقع على بعد ٣٠٠م جنوب شرق القرية وهو من النوع الثاني من أحجار المنطقة والمعروف محلياً باسم القهب الأبيض، ويمتاز بسهولة القطع والتهذيب؛ أما بلدة المخواة القديمة فيوجد بها عدد من المقالع الحجرية من نوع القهب الداكن. وينتشر بمنطقة تهامة زهران أيضاً العديد من المقالع الحجرية مثل مقلع بلدة قلوة، والشعراء، والحجرة، وجميعها تنتج حجر الديورايت والأردواز بنوعيهما الفاتح والغامق بالإضافة إلى العديد من مقالع حجر الغرانيت والذي يستغل في عملية سد الفراغات في الحوائط الخارجية للمباني والمعروف محلياً باسم الحشوه. أما مادة البناء الأخرى من الحجارة والتي تدخل ضمن مادة البناء في المنطقة فهي حجر المرو الأبيض والمعروف باسم الكوارتز، حيث يوجد بشكل متناثر على سفوح الجبال، وفي بطون الأودية، ويستغل هذا النوع في الزخرفة على واجهات الأبراج الدفاعية، وحول النوافذ في المباني السكنية ويعتبر سمة تقليدية تدخل في جميع المباني الحجرية بالمنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية (العبودي ١٤١٥: ٤٧-٤٩).

الطين. هو أكثر المواد الأساسية استخداماً، وأهمها في البناء التقليدي

في معظم مناطق المملكة، خاصة المناطق الوسطى والشمالية، ولذلك يطلق على الأبنية والبيوت التي يستخدم الطين في بنائها بيوت الطين.

وقد اشتهر أهل نجد شهرة واسعة بإجادة البناء بالطين أو اللبن منذ زمن بعيد ولا أدل على ذلك مما ورد في شعر الأعشى بقوله:

فأضحت كبنيان التهامي شاده

بطين وجَيَّار وكلس وقرمد

والطين تراب شبيه بالطمي أو الغرين، لونه بني مائل إلى السمرة أو الحمرة الداكنة، يؤخذ من الأراضي الطينية أو المزارع، أو من مجاري السيول وقيعان الأودية والبرك والمستنقعات بعد أن يجف ماؤها. وتسمى هذه الأمكنة التي يؤخذ منها الطين مطاين مفردها مطينة، وتكون غالباً قريبة من المدن والقرى، أو ربما وجدت داخل المدن والقرى أو في أرض البناء. والمهم أن يكون هذا التراب من نوع جيد التماسك بعد خلطه بالماء والتبن وتخميره مدة كافية حتى يصبح كالصلصال تقريباً، ويقوم مقام الإسمنت (السميت) في الأبنية الحديثة. ويستخدم الطين لدعم أساسات الأبنية وتقوية أركانها، إذ يتداخل بين الحجارة (الدبش والجمرش)، كما يستخدم في بناء الجدران والقواطع الداخلية، ويُصنع منه اللبن، إضافة إلى استخدامه في تلييس الجدران من الداخل والخارج بعد بنائها لسد الثقوب والفجوات فيها، يقول العبودي:

> تدخل مادة الطين في البناء التقليدي في تهامة زهران وبصورة خاصة في عملية التسقيف بالإضافة إلى اللياسة الداخلية للجدران لبعض المنازل (بيوت الأثرياء فقط) وكذلك الأفران (الميفه)، والقواطع الخشبية الثابتة داخل المنازل وأرضيات الأدوار السكنية والأسطح العلوية؛ وفي العادة يتم تأمين هذه المادة من المزارع المحيطة بالقرية، أو من بطون الأودية القريبة عن طريق أهالي القرية بشكل نفير (عانه)، وخاصة من الرجال والصبية بواسطة الزنابيل المصنوعة من سعف شجر الدوم، ومن ثم يتم نقله إلى موقع البناء، ثم تأخذ النساء على عاتقهن تأمين الماء بواسطة القرب الجلدية، وذلك استعداداً لخلط الطين. ويتم ذلك باستخدام الأبقار أو الثيران التي تدوس الطين المبلل بالماء قبل استخدامه، ويعد هذا العمل مناسبة اجتماعية يشارك فيها جميع سكان

القرية، وتسمى محلياً باسم (الحوسه) كمرحلة أولى، وبعد ذلك يتم جلب أوراق نبات المرخ، والطباق ويفرش فوق السواري الخشبية التي تعلوها صفائح رقيقة من الحجر، ويوضع فوقها الطين المبلل بالماء ثم يفرش طين جاف يعرف محلياً باسم (القفو) كمرحلة ثانية لغرض التثبيت من ناحية وأرضية للدور الذي يليه من ناحية أخرى (١٤١٥: ٤٧-٤٩).

اللِّبْن. مفرده لِبْنَه، وهو الطوب الطيني غير المحروق، يصنع من الطين ويجفف تحت أشعة الشمس. ويُصنع اللبن بالملبن من الطين المخلوط بالتبن ليمنع تشققه والملبن أو الملبان هو إطار مستطيل خشبي مفتوح من جهتيه العليا والسفلى، ويستخدم في بناء المداميك التي تتشكل منها الجدران.

الماء. الماء من المواد الضرورية لعملية البناء في مختلف الحقب والعصور. ولهذا كان الناس في الماضي يحرصون على أن يتوافر الماء لديهم أو قريباً منهم أثناء البناء، وكثيراً ما كانوا يحفرون بئراً صغيرة في أرض البناء، خاصة في ركن من أركان الحوش الكبير، تحقيقاً لخصوصية البيت التقليدي، كما سيأتي

منزل جديد يبنى والعمال يرفعون الماء من البئر الموجود في فناء المنزل

ذكر ذلك عند الحديث عن الحوش الكبير أحد أقسام المنزل.

وإذا لم تتيسر بئر صغيرة لأخذ الماء لإعداد الطين واللبن، تحفر أحواض في الأرض يُجلب إليها الماء بالقرب على ظهور الدواب. ويُفضل أن يكون الماء المستخدم لخلط الطين وعمل اللبن غير مالح أو قليل الملوحة، لأن الماء المالح يترك في الطين الجاف حبيبات ملحية تذوب وتتميّع حين يتعرض الطين للأمطار أو الأجواء الرطبة مما يفتته أو

يقلل من تماسكه. وليس من الضروري أن يكون التلبين (أي عمل اللبن) فوق أرض البناء، فقد يجلب اللبن جاهزاً من أمكنة معروفة تدعى الملابن، من صانعيه المتخصصين بهذا العمل.

التبن. التبن أو القش كما يسمى أحياناً، هو المادة الناتجة بعد دراسة سنابل وسيقان وأوراق القمح والشعير وفصلها عن الحبوب. ويستخدم التبن أصلاً علفاً للحيوانات. كما يدخل في خلطة الطين واللبن ليزيد من قوة الطين وتماسكه، ويحول دون تشقق الجدران. ومن مميزات التبن أيضاً أنه يسمح للطين واللبن بالتمدد، لما فيه من المسام، كما أنه يمتص الحرارة والبرودة. وهو مادة محلية متوافرة وقريبة التناول، إضافة إلى رخص ثمنه.

الرمل. يستخدم الرمل ذو اللون الأحمر، بنوعيه الناعم والخشن، بنسب قليلة في خلطات الطين واللبن إلى جانب التبن، لزيادة تماسك الطين أو اللبن وصلابتهما، لأن الرمل يحتوي على أكسيد الحديد ومادة السليكون ذات الخاصية الغروية.

الرماد. يستعمل الرماد الناتج عن حرق الأخشاب والحشائش الجافة، في ترميد المحافر التي ينقل بها الطين حتى لا يلتصق بباطنها ويجف، ويزيد في ثقلها ويقلل من استيعابها لنقث الطين الجديد. وهناك عامل خاص لرش الرماد أو التبن داخل المحفر أو الزنبيل.

الجص. ويسمى أيضاً النورة، وهي مادة بيضاء اللون ضرورية لأعمال الطلس،

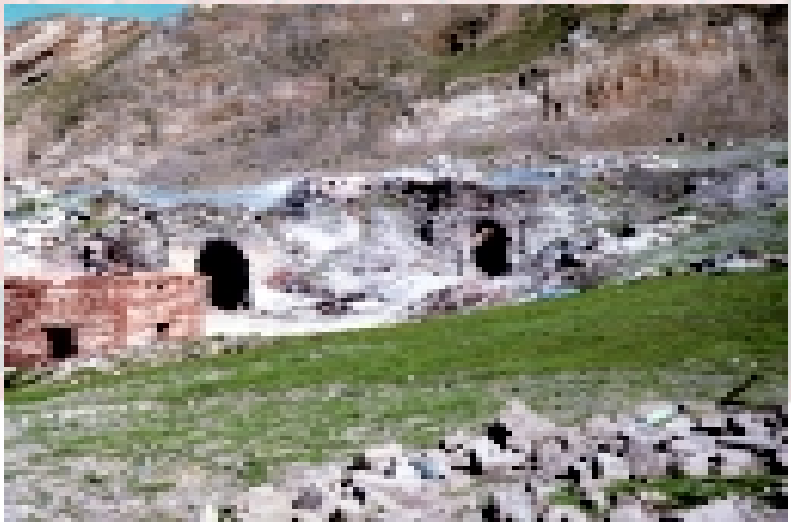

منظر عام لمصانع النورة، وتُرى في الخلف المحاجر

أكوام النورة بجوار المصنع السابق

والملط، والتبييض، والتزيين لجدْران الأبنية من الداخل والخارج، وتؤخذ من الحجر الجيري بعد حرقه وسحقه في المجاص. وقد كانت هناك مجاص قبل ستين عاماً في شمال الرياض، في الغالة والملز والربوة، ينقل منها الجص على الجمال والحمير بالمناقل والأوقار. وتوجد المجاص في كل منطقة من مناطق المملكة، ويحصل على الجص بالطرق التقليدية. والمجاص مبنية على شكل قبة ولها فتحات صغيرة على شكل تنور بحيث توقد النار في داخل القبة، من جذوع النخل، ويخرج اللهب من الخروق على الجص. وبعد حرقه بالنار يُحمل إلى مكان آخر يُسمى القاع، وهو مليس (مجصص) بالجص المطبوخ أيضاً. ثم يدق الجص بمداق من خشب الأثل حتى ينعم ثم ينخل. وهناك من يأخذ الجص ويوقد عليه النار بنفسه بدون استعمال المجاص وبدون استخدام عمال وذلك بوضع الجذوع فوق قطع أو عروق الجص مباشرة وإشعال النار بهذه الجذوع حتى يستوي الجص. ثم يؤخذ ويدق ولكن جودته أقل من الجص المأخوذ من المجاص، ولونه أقل بياضاً.

الخشب. يستخدم الخشب في مختلف أنواع البناء التقليدي، وخاصة للتسقيف والطمام ولصنع الأبواب والنوافذ والدرايش والأوتاد التي تثبت في الجدران، كما يستعمل في صنع الطُرَم والرواشين والشيش.

ومن أفضل أنواع الخشب المستعمل في البناء التقليدي خشب الأثل والنخيل والعرعر إذ يتوافر في معظم مناطق المملكة. وهناك أنواع من الخشب كانت تستورد من الخارج لقوتها ومتانتها مثل خشب السيسم.

ومما يجدر ذكره أن السكان في المنطقتين الغربية والجنوبية، وخاصة في تهامة وفرسان والسراة وجازان والمناطق الساحلية الأخرى، كانوا يستخدمون الخشب في بناء العشش ويعتمدون عليه اعتماداً كبيراً إذ تقوم هذه العشش (المنازل) مقام البيوت الطينية يقول العبودي:

> تعد مادة الخشب من أكثر المواد الخام أهمية بالنسبة للبناء في منطقة تهامة زهران، ويرجع ذلك إلى الغطاء النباتي المتميز في البيئة المحلية، مثل

شجر العرعر، والسدر، والطلح، والعتم، والشبارق. والخشب مادة ذات خواص عالية استغلت من قبل الأهالي حسب قواعد عرفية للحد من كثرة استهلاك الغطاء النباتي في البيئة الطبيعية، وهي أيضاً مادة طبيعية تمتاز بمميزات عديدة لا تتوافر في أي مادة أخرى، مثل القوة وخفة الوزن وعدم التأثر بالحرارة والقدرة على امتصاص الصدمات وعزل الصوت، وغير ذلك من المميزات التي شجعت السكان في بلاد زهران العرضية على الاعتماد الكلي على هذه المادة في تسقيف منازلهم، وعمل النوافذ والأبواب وأطرها.

وتستخدم جذوع شجر العرعر والسدر والطلح سواري تحمل سقف المنزل، لمتانتها، وطولها المتميز، وقدرتها الفائقة على تحمل الأوزان الثقيلة، أما أشجار العتم (الزيتون البري) ونبات الشبارق فتستخدم أغصانها الدقيقة في المراحل الأخيرة في عملية التسقيف لسد الفراغات بين السواري إضافة إلى استخدامها في عمل الفواصل الداخلية المطلية بالطين.

أما عن استخدام المواد العضوية فيعمد السكان المحليون إلى خلط الطين بمخلفات الماعز والأبقار من أجل ضمان تماسك الطين من الانسياح أثناء عملية التسقيف». (١٤١٥: ٤٧-٤٩).

أدوات البناء

نتحدث في هذا الجزء عن الأدوات المستخدمة في عملية البناء، من مسحاة وشاقوف وعتلة ومطرقة وغيرها، وطبيعة عملها ومهامها خلال مراحل البناء المختلفة.

تُستخدم، خلال عمليات البناء والتحضير له، أدوات كثيرة، سواء كانت من الحديد أو الخشب أو الجلد. ومن هذه الأدوات على سبيل المثال: العتله والفاروع والمرزبه والشاقوف والقزمه والمطرقة والملعقه والميزان والمسحاة والملبن والوقر والمحافر والسلالم والحوامل والمثاقب والمطبابه وغير ذلك من الأدوات الصغيرة والكبيرة. ومن أهم الأدوات التي يستعملها العاملون في البناء ما يلي:

المسحاة. وتسمى الماصوله أو المنساف، ولها ريشة حديدية عريضة، تكون شبه مثلثة أحياناً، ولها ثقب يدخل فيه نصاب المسحاة، والنصاب خشبة طويلة في حدود ٨٠سم. وتستعمل

المسحاة لخلط الطين مع التبن، كما تستعمل أحياناً في الحفر وإخراج التراب الناتج عن حفر الآبار وساسات الأبنية.

الملبن (الملبان). صندوق من الحديد الصلب رقيق الجدران، أو من خشب الأثل على شكل متوازي المستطيلات، مفتوح من الأعلى والأسفل، طوله ٤٥سم وعرضه ٣٠سم وارتفاعه ٢٥سم. وبعد وضع الطين داخل الملبن، يضغط العامل المختص بعمل اللبن بكفه على سطح الطين الذي بداخل الملبن من الجهة العليا ليأخذ الطين حجم القالب أو الملبن. ثم يمسك العامل بعروتي القالب الخارجيتين ويشد الملبن، أي القالب، إلى أعلى فيخرج الطين على شكل لبنة من الجهة السفلى للصندوق. ويكرر العامل هذه العملية لإنتاج لبنة وأخرى وهكذا. وفي العادة يكون هناك عدد من الملابن (القوالب) يعمل عليها عدد من العمال لزيادة إنتاج اللبن. وكل لبنة تأخذ تقريباً حجم القالب (الملبن) من الداخل وشكله، إلا السطح العلوي للبنة فإنه لا يكون مستوياً بسبب ضغط العامل عليه بكفه حيث يترك فراغاً أو انبعاجاً يُحشى بالطين عند البناء لتتماسك كل لبنة بالأخرى. وعندما تجف هذه الكتلة الطينية أو اللبنة، تصبح قاسية كالحجر.

وتبنى جدران البيت من هذه اللبنات في خطوط أفقية مستقيمة. وقد يجعل سطح اللبنة محدّباً، ويملأ الفراغ الناشئ عن تجاور لبنتين.

المحافر. جمع محفر، وهو زنبيل صغير مصنوع من الخوص يستخدم لنقل الطين من مكان خلطِهِ إلى موقع البناء، أو نقل التراب من الأماكن المحفورة، مثل الآبار أو السيسان (الأساسات) الخاصة بالبيوت والأبنية إلى أمكنة قريبة.

المطبابه. حصاة ملساء لدك الطين ولبن الجدران، لزيادة تماسكها، وحجم هذه المطبابه ملء قبضة اليد.

الشاقوف. قطعة حديدية ثقيلة لها طرف مدبب، لكنه غير مسنن وحاد، وطرفه مسطح، وهو يشبه القدوم والفأس شكلاً ويختلف حجماً ووزناً. وللشاقوف فتحة لتثبيته في ذراع خشبية. ويستخدم الشاقوف لتكسير الحجارة الكبيرة في المحاجر وورش عمل البناء.

المرزبه. تشبه الشاقوف شكلاً، لكنها أقل منه وزناً، وتستخدم في تكسير الحجارة وتفتيت المواد الصلبة.

القزمه. تشبه المرزبه أو الشاقوف، لكنها أصغر حجماً وتستخدم في تشكيل الحجارة وإعدادها للبناء.

المطرقه. تشبه القزمه ولكنها تستخدم عادة في الأخشاب إما لنزع المسامير أو لتثبيتها.

العتله. هي قضيب حديدي ثقيل تزيد عن متر طولاً، ولها طرفان أحدهما مسطح والآخر مدبب. وتستخدم في اقتلاع الحجارة وتفتيت الأرض الصلبة وتحريك المواد الثقيلة، وبخاصة الحجارة، بطريقة الروافع.

الملعقه. أو المسطرين ويستخدمها معلم البناء في نقل الخلطة من الزنبيل إلى الجدار وتسويتها بين الحجارة.

الميزان. يكون إمّا زاوية حديدية أو خشبية، ويستخدم لضبط الزوايا، أو صفيحة مسطحة القاع تملأ بالماء وتعرف بها الميول في الأسقف والجدران.

وهناك ميزان البناء لحفظ الاتزان الرأسي للمباني، وهو من قطعتي خشب مثقوبتين، يصل بينهما خيط، ويتحرك بينهما ثقل مثقوب يمر داخله الخيط. ويستخدمه معلم البناء لحفظ الاعتدال الرأسي للجدران.

البناؤون وطوائفهم

نستعرض هنا القوى البشرية الممارسة لمهنة البناء من خلال تقسيماتها الفنية وغير الفنية في هرم العمل الخاص بها، ونبين المراحل التي يتدرج فيها العاملون في البناء من أول سُلم العمل حتى يبلغوا آخر مراحله، ولكل مرحلة مسؤولياتها والتزاماتها فضلاً عن مهاراتها وقدراتها.

تعد مهنة البناء من المهن الشريفة التي ينظر المجتمع إليها وإلى ممتهنيها نظرة احترام وتقدير، فهي لا تختلف من هذه الزاوية عن الزراعة والرعي والتجارة والجِمالة، ولذلك امتهنها كثيرون من أفراد الأسر والقبائل العريقة في جميع مناطق المملكة.

وجدير بالذكر أن نظرة الناس في مختلف مناطق المملكة إلى ممارسي الحرف والصناعات قد بدأت تتغير إلى الرضا والقبول في ضوء الوعي والتطور والانفتاح وتبادل المصالح والمنافع بين شرائح المجتمع من جهة، وفي ضوء حرص الدولة على دعم العاملين في قطاع الحرف والصناعات وتشجيعهم بفتح وإنشاء المراكز المهنية المتطورة في سبيل تعليم الشباب وتدريبهم وفتح أبواب العمل واكتساب الرزق الحلال بعرق جبينهم، مع التأكيد دائماً على أن «قيمة كل امريء ما يحسنه»، وعلى أن العمل في الحرف والمهن ليس عيباً، بل هو شرف للإنسان، اتباعاً لما جاء في الأثر: «ما أكل الإنسان شيئاً قط خيراً من كسب

يده» وامتثالاً لتوجيهات ديننا الإسلامي الحنيف الذي حث على العمل والكسب الحلال، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً ويذهب إلى الجبل فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»، ولقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أرى الرجل فيعجبني فإذا قيل لي لا صناعة له سقط من عيني»، كل هذا إضافة إلى ما ورد في ديننا الحنيف من أخبار وأحاديث تنص على أن من الأنبياء عليهم السلام من مارس بعض المهن كالرعي والصناعات والتجارة وغيرها. ولقد جاء الإسلام والحمد لله ليحد من شطط بعض العادات والتقاليد القبلية القديمة التي تحط من شأن الحرف والصناعات وممتهنيها ويرفع من شأن من يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ويأكلون من صنع أيديهم.

وتجري عملية البناء على نحو من التعاون بين مجموعة العاملين، ذلك أن كل عامل مكلف بمهمة خاصة عليه إنجازها حتى يتمكن غيره من إكمال مهمته أيضاً.

ومن ثم عرفت المهنة لوناً من الهرم الوظيفي بعض عماله حاضرون في موقع العمل وبعضهم يؤدون عملهم في مواقع أخرى ثم يجلب إنتاجهم إلى موقع البناء، كقطع الحجارة وتشذيبها مثلاً. وبإيجاز نبدأ بأعلى السلم الهرمي للبناء، وعلى قمته الستاد ومساعده وبقية المعاونين:

الستاد. مصطلح شعبي محرف من كلمة الأستاذ أي المعلِّم وهو لفظ فارسيّ دخل العربية ونطق فيها بطرق مختلفة منها الأستاذ والستاد والأسطى. وهذه الأسماء جميعاً: الأستاد، والستاد، والمعلم، والريّس، ليست حكراً على البنّاء فقط، فقد تطلق أيضاً على النجار البارع والنقاش والجصاص والحجّار وكل من له خبرة وتجربة وشهرة في أي مهنة أو عمل من الأعمال. ولكن مع مرور الزمن أصبحت هذه الأسماء ألصق بمعلمي البناء من غيرهم. والأستاد أو الستاد هو المقاول والمتعهد ورئيس فريق العمل، ومن غيره لا يكون هناك بناء، فهو الذي يخطط الموقع ويصمم البناء ويحدد الأعمال والوظائف ويوزع المسؤوليات على عماله، ويقدر أجورهم أو مكافآتهم الشهرية أو اليومية، كما أنه المسؤول عن ترقيتهم من وظيفة إلى أخرى أعلى منها حتى يشهد لهم في النهاية أمام الناس بأنهم قد أصبحوا معلمي بناء. وهذا ما يجعل العمال يطيعون أوامره

وينفذون رغباتـه بكل نشاط وحماس وإتقان كما ينفذ التلميذ أوامر وطلبات معلمه ليـنال رضاه وتقديره. والستاد هو الذي يتولى بناء الساسات والعروق وكذلـك الجدران، بالحجـارة والطين واللِّبْن. وقد يستعين بستاد آخر إن كان البناء كبيراً، خصوصاً عند بناء القصور والقلاع والمساجد وغير ذلك من الأبنية الضخمة، الـتي تستغرق وقتاً طـويلاً وجهداً كبيراً.

مساعد الستاد. وهو ساعد السـتاد الأيمن، بل إنه يحل محل الاستاد في تنفيذ العمل عند غيابه أو عند أخذه وقتاً للراحة. ويسـمى المزوري في المنطقة الوسطى والشقردي في المنطقة الشرقية والقراري في المنطقة الغربية، ويعتمـد عليه الاستاد في كل صغيرة وكبيرة لكونه أصبح مؤهلاً ليكون ستاداً مستقلاً في وقت قريب. وكثيراً ما يعهد إليه الاستاد ببناء بعض القواطع والجدران الداخلية تحت إشرافه. وهو المسؤول الثاني عن العمل والعمال ومواد البناء بعد الستاد، سواء في حضور الستاد أو غيابه. وهو الذي يقف قريباً من الاستاد، ويلقّفـه ويناوله اللبن والطين كلما طُلب منه بلا تلكؤ أو خطأ، ومن هنا يدعى أحياناً الملقف أو اللقاف.

وفي الـعادة، يـكون لدى الـستاد مجموعة مـن الأشخاص يطلق عليهم المزوريه أو الحرفية يتعاونون معه، ولكل واحد مـنهم اخـتصاصه. وهـم غالبـاً يعملون مع الستاد بشكل دائم لأنهم مثل أبنائه وتلاميذه، ويصحبونه في كل عملٍ وكل مقاولة. وقد يضيف السـتـاد إليهم عدداً آخر جديداً من العمال عند اللزوم. كالمثوار والموّاس والشذاب وغيرهم.

المثوِّر. هو العامل الذي يجهز تراب الطين على شكل إناء (حوض) ليصب عليه الماء، وهو بذلك يثير الغبار، ومن هنا جاءت تسمية المثوِّر.

تجهيز الطين وخلطه بالماء تمهيداً لصنع اللبن

الموّاس (الخلاط). وهو الذي يخلط الطين بالماء فيموسه موساً، أي يبسُّه بسّاً.

الشذّاب. هو الذي يقطّع الطين بعد تخميره ويجهزه للخلاط.

الدمرجي. أو الدمارجي كما يعرف في الحجاز، وهو عامل يقوم بإعداد الخلطة ومساعدة الفنيين (البناء والقراري) في تحضير مواد البناء، وبخاصة الطين وشظايا (خصاصات) الحجارة، لتعبئة الفراغات في الجدار وحشوها بالطين.

القراري. ويحتل المركز الثاني بعد المعلم (البنّاء) في الحجاز، وهو الذي يصوغ الحجارة ويشكلها وفق طلب البنّاء.

المروّج. يقوم بالتشطيب المباشر بمتابعة عمل البناء وحشو الثغرات بما يلزمها من المونة وشظايا الحجارة ونحوها.

الخلاط. وهو الذي يقوم بخلط الطين بالتبن بعد الشذب ويجهزه للوطّاي.

الوطاي. يتعاون مع الخلاط في خلط الطين ووطئه بالأقدام حتى يلين.

الملبق. وهو الذي يقوم بتجهيز اللباق (قطع الطين التي على شكل كور، مفردها لباقه) ليسهل حملها باليد أو باليدين معاً.

الملبِّن. وهو الذي يعد اللِّبن من الطين باستخدام الملبن.

صنع اللبن عن طريق الملبن باستخدام الملبن

المعدّي. وهو الذي يحمل كتل الطين الكروية من اللباق ويُعدّيها إلى العامل الذي يليه وهو الزقّاف.

الزقاف. هو الذي يقذف اللباق إلى اللقاف، فيلقفها منه.

اللقاف. هو الذي يلقف اللباقه من الزقاف ويمد بها مساعد الاستاد (المزوري) لينا ولها إلى الستاد.

وإذا كان البناء كبيراً ويعمل فيه أكثر من ستاد، عند ذلك يلزم أكثر من مزوري ومشور، وأكثر من مواس وزقاف ولقاف... إلخ. وفي العادة فإنّ البيت الكبير يحتاج من ٣٠-٤٠ عاملاً في مختلف الاختصاصات، أما البيت

الصغير أو المتوسط فلا يحتاج الستاد فيه من العمال إلاّ إلى نصف أو ثلث هذا العدد. أما القلاع والأسوار الكبيرة فتحتاج إلى مئات من العمال. ويبذل الستاد وعماله قصارى جهدهم لإتمام بناء البيت خلال شهرين أو ثلاثة على الأكثر، وهي غالباً فترة الصيف فقط.

العمالة الفنية الأخرى. ربما اختلفت أسماء العمال وألقابهم في المقالع وورش النجارة من منطقة إلى أخرى، ولكن أشهرها ما يلي:

– الكسّار أو الحجّار وهو الذي يقتلع الصخور والحجارة ويكسرها في المحاجر التي تقع خارج المدينة أو داخلها.

– اللغمجي وهو الذي يتولى عملية ثقب الصخور وحشوها بالبارود، وإتمام عمليات التلغيم والتفجير.

وكذلك كان للحرفيين المساعدين مثل النجارين والحدادين، طائفة خاصة بهم، لها القوانين والأنظمة والطبقات نفسها. ففي مجال النجارة مثلاً نجد:

– المعلم النجار وهو الذي يضع التصاميم ويرسمها على الخشب، من شبابيك ورواشين وأبواب ورواشين ونحوها. ثم يعهد إلى نائبه (الاسطى) وإلى الصبيان، أو العمالة التي تحت إشرافه، بالتنفيذ.

– النشار وهو الذي يقوم بنشر الأخشاب الكبيرة التي ليس في مقدرة النجارين عملها لعدم توافر المعدات اللازمة لديهم.

– النقاش ويتولى حفر الخشب وتنفيذ النقوش والتشكيلات الفنية، مستخدماً الضفر والأزاميل وغيرها.

– الصبيان وهم العمالة المبتدئة من الصغار الذين يتدربون تحت إشراف الفنيين، فيقومون بأعمال النجارة والنقش.

ومن المعروف لدى معلمي البناء – في الحجاز مثلاً– أن معظم معلمي النجارة، خاصة الذين تخصصوا في بناء الرواشين، قد تعلموا أسرار المهنة من النجارين الذين وفدوا للحج من بلاد الهند ومصر والشام. وكان هؤلاء يعملون بالأجر لدى النجارين الحجازيين فيتعلم منهم العمال مهارات عديدة، وأساليب مختلفة لمعالجة الخشب، خاصة أن الخشب كان من المواد غير المألوفة تماماً لدى نجاري الحجاز لعدم وفرة أنواعه. لهذا السبب فإننا نجد تشابهاً كبيراً جداً بين الزخارف المنفذة على الأبواب والرواشين الحجازية، وتلك المنفذة في حيدر أباد ودمشق والقاهرة مثلاً.